

قاسم والي , عصيُّ على التفكيك , كقصيدةٍ في آخرِ الضوء

(3)

هاتف بشبوش

أنا خيبةٌ للصحاري التي غادرتها الغيوم

أنا قبيلةٌ للهموم

أنا كلُّ ما فيّ أني أحبُّ

أهوى وأهوي

ولكنني سأقوم

هناك إختلاف كبير بين الأدباء في مدى علاقتهم مع الأنثى , ليوناردو دافنشي كان يتجنب العلاقة مع الأنثى وفي لوحته الجيوكاندة كان يجسد الأم التي يبحث عنها في أعماقه لأنه ولد غير شرعي .تولستوي كانت زوجته مشاكسة تكره ميوله الأنسانية , وتضيق بالأصدقاء الذين يزورونه , فجعلته يتخلى عن ممتلكاته للفقراء ويترك بيته 1910 ولم يبق معه سوى أبنته الكسندرا التي كانت تتفهمه . بيكاسو كان يتعامل مع المرأة كما يتعامل مع

نتيجة هزيمته, وتنتحر بعده حبيبته كليوباترة بسم الأفعى مع طاقم خادمتها اللاتي كنّ يحرسنها , ماتوا وخلفوا لنا رائحة حبهم التي تناقلتها الألسن جيلاً بعد جيل.

أنها دعوات بيضاء من قبل الشاعر قاسم , أنها صرخاتٌ ليس لها سلاح سوى قلوبها المنكسرة , أو التي نخر بها الصديد مرةً وغادرها مرةً , جالتُ في خواطرها الصبابةُ ثم صالتُ في محياها رياحُ الوجد , حفرت في ثناياها رحمة الأيمان التي لوّثتها بين الحين والآخر صدأة الكفر , نتيجة ثقل الهم الذي لا يُحتمل . كلّ هذه أدّت بشاعرنا أن يرفع راية نصوص قراطيسه البيض أدناه , لنزّ ماقاله في نص (ثلاث إختصارات).....

لكنّ أم (سالم) جارتنا

لم تعد تصلّي

ففي آخر حربٍ إختطفه عزرائيل

لم يتبقّ لها سوى زيارة قبر علي

لأنه سمح لسالم أن يرقّد على مقربةٍ

أو ما تبقى منه على الأقل

النص ضمناً يتكلم عن الموت , الموت في كل الأحوال هو الخسارة المطلقة التي يشترك بها جميع من في الأرض , الموت قاهر , الموت مخجل ومهين (القمل الذي يتكاثر في الشعر , يهرب مذعوراً إلى الوسائد , عندما يموت الشخص , فيسبب الحرج والخجل للأسرة غابرييل غارسيا ماركيز)..

الحرب خلّفت الكثير من الثكالي , وهاهي أم (سالم) تئأس من حياتها , بل تكفر , ثم تعود من جديد إلى الأيمان ولكن بشكل آخر , حيث تقوم بزيارة قبر علي , لأن وليدها يرقد هناك بالقرب منه وبمقبوليته كما جاء على لسان حالها (لأنه سمح لسالم أن يرقد على مقربة) , هذا الشطر الشعري يذكرني بما قرأته عن نابليون بونابرت وحق الدفن في المقابر (مقبرة المشاهير في فرنسا , إفتتحها نابليون بونابرت عام 1804 وقال بأن لكل إنسان الحق في أن يدفن , بعد غلق المقبرة الكبيرة نتيجة الأمراض والأوبئة , وحضر الدفن فيها , وقد دفن فيها المخرج السينمائي , يلماز كونال , أما مقبرة العضاء فهي في قلب فرنسا , وقد دفن فيها فيكتور هوجو , ويتم فتحها يوم واحد كل عام , يسمى يوم التراث الوطني) , لكن اليوم نرى مايفعله المجرمون البعثيون والداعشيون وغيرهم في العراق من قتل وذبح بأسم الدين , دون أن يعطوا حق الدفن لضحاياهم.

أم (سالم) ولكثرة ما ألمّ بها من ألم الفراق لأبنها المتوفى , تصنع لها إيماناً آخر لكي تريح النفس العليله , النفس الكليمة الباكية اللاطمة , تقوم بأبتكار إيمان لها , هو زيارة علي ونسيان الله , , إيمان من نوع آخر , وهذه خصلة يشترك بها العراقيون فقط , حيث نجد كل عراقي يؤسس له دينه الخاص به , دينه الذي يسمح له في أن يمارس الطقوس التي يريدونها , أنها الخزعبلات التي تعيش عليها غالبية الشعوب البانسة الجاهلة والتي لاتفكر في أن تحسن من حالها وأدائها في الحياة على غرار الشعوب الأخرى التي تخطت وتركت ما من شأنه

أن يكون سببا في فشلها وتخلفها , أنها الرغبة التي يجب أن تتولد لدى شعوبنا كي تنهض لبناء وإصلاح حالها ,
ولذلك الشاعر أتحنفا في نصه أدناه (رغبة).....

لكل أمهاتي صعوداً

آخرهن الأرض

أعلن إنكساري ورغبتني بالطفولة

رغبتني بالتضاؤل حد الأبتسام بوجه القمر

النص ينطوي على التمرد مما يحصل في هذه الأرض التي لم تجلب سوى الدمار والأنكسارات لساكنيها ,
هناك من الرأي الذي يقول أن الدول التي تبحث عن حياة في الكواكب الأخرى , ماهو الأ هروب الأنسان من
الأرض التي ضاقت بالبشرية , هروب من كوارثها الطبيعية أو الحروب التي يصنعها البشر بين الأونة
والأخرى .

ريالة الطفولة الصافية وبرائتها , كل مايتمناه الشاعر قاسم , إنها الفترة التي يعيشها الكائن نقيه لايشوبها
التعكير , إنها جذر المرء الطاهر مهما طال به الزمن . أنه يريد أن يبقى جرماً صغيراً مشعاً بضياءه الساطع .
الأنسان اليوم كلما تقدم في التكنولوجيا لأغراضها النفعية والخيرية , وجد نفسه منكسراً في الحد الثاني منها ,

الحد الذي يؤدي بالنتيجة الى العدمية والدمار , الحد الذي يظهر وحشية الانسان في حالات الانحسار التي تُفرض عليه , أن يُظهر الوحشية والقوة للوصول الى غايات الانتصار , حتى وإن أفنى أخيه الذي يساويه في الخلق . الجانب الشرير في نفس الأنسان يظهر في حالات اليأس , وهذا الجانب هو الذي خلق الحروب بين سائر بني البشر منذ نشوء الخليقة حتى اليوم . ولذلك الشاعر قاسم ينحدر الى الرغبة في الأرتقاء الى عالم الطفولة الذي يبقي على عقله أبيضاً , لا مدنسا بالبعوض والكراهية , فراح يكتب نصه القرطاسي الأبيض (لمناسبة العيد) الذي يستعيد فيه الكثير من ملامح طفولته

نحنُ: الطاعنين في الصبر

الساكنين كمقبرة

الفقراء جداً

نبحثُ عن الأطفال

والأراجيح

ونقودُ من المعدن

ونفقُ في آخر الضوء

أكادُ أجزم , ما من شاعرٍ الأَّ وهزته أنسام العيد وأفراحه التي يجسدها البشر على إختلاف مشاربهم فوق هذه الفسيحة (من العدل أن يأتي الفرحة بين وقتٍ وآخر....البيركامو), العيد كمسميات يختلف من بلدٍ لآخر , لكن في النتيجة يعطينا معنىً واحداً وهو العيد الوطني للأمة المعنية . أغلب الشعراء كتب بما تجود به خاطرته عن هذه المناسبة التي تجمع البشر في أفراحهم , وأولهم المتنبي العظيم . ولكن ماهو الترابط في هذا النص المكرس للعيد مع المقبرة , أعتقد بأنَّ الشاعر يريد أن يوصل رسالة مفادها (عيدٌ وبأي حالٍ عدتَ يا عيدُ) , حيثُ أننا بلا أحلام في هذه الأيام المرّة التي أصبحت عبارة عن صبرٍ ثم صبر , أو أن احلامنا طوتها المنايا وأصبحت رمام , وليس لدينا من المأوى سوى أننا كالمقابر التي يتساوى فيها الراحلون (أيها القبر تكلم وأخبريني يارمام ... هل طوى الكون أحلامك وهل مات الغرام ...من هو المائت من عامٍ ومن مليون عام إيليا أبو ماضي) .

الشاعر أيضا لم يخرج عن الرمز التقليدي للعيد , والمحب الأساسي لكل حيثيات العيد هم الأطفال الذين لايفقهون ماذا تعني الحالة المتردية أو الميسورة للعائلة , أنهم الوحيدون القادرون على الأندهاش ورسم السعادة بكل حذافيرها في العيد , الأطفال هم الأكثر منا بهجةً في إطلالة العيد , غير أنَّ هذه البهجة تختلف من طفلٍ الى طفل فيما لو أخذنا الأمور من جانبها الأسطوري الذي كان يحكم البشرية قبل صناعة القوانين , على سبيل المثال : كان هناك أغنية أطفال إنجليزية قديمة تقول (طفل يوم الأثنين صافي الوجه , طفل يوم الأربعاء ملئ بالكآبة , طفل يوم الخميس يذهب بعيداً , طفل يوم الجمعة يحب ويعطي) , وهكذا ترانا ننظر الى المستقبل من خلال أطفالنا , مثلما نتمنى لهم أعيادا ومستقبلاً أفضل , وحتى هذا المستقبل أراني أجده مشوشاً ومجهولاً ومسوداً ومظلماً , كما أقرأه في السطر الأخير من النص , السطر الذي يعبر عن فنية مذهلة لدى الشاعر في

تبديل موقع الكلمات , (ونفقٍ في آخر الضوء) , لو أنّ الشاعر كتب النص بشكل تقليدي (وضوءٍ في آخر النفق) لكنّ قلْتُ أنّ المستقبلَ مشرقاً لا محال .

وهكذا تنتهي قراطيس قاسم النثرية بنص وجودي(إليه... وإن كان لا يسمع) نستطيع أن نفتبس منه الآتي

.....

أيها السائر في الصمت الأبدي كيف سمحت لي بأنّ

أحلم؟

كيف سمحت لأشتغالِ أجزائك الصامتة البليدة في

قلبي؟

لأمتلاً بالحلم وبالحرّة وبالحبّ

قصيدة النثر تعطي للشاعر كيانا شخصيا أكبر لكي يخرج من التقاليد الموروثة , ومع ذلك نجد البعض يصرون على الأبقاء على تلك التقاليد بالرغم من الثقافة الطليعية والحدائية التي يمتلكونها , وهذا ناتج من كون المثقف في البلدان الرجعية بشكل عام , يتحلّى بالأزدواجية والأنقائية في عملية تغيير المجتمع , وهذا هو جزء من الأسباب التي جعلت الأمة تراوح في مكانها البدوي المتصحر.

في النص اعلاه أرى النثرية صارخة في التركيز , فيها الشاعر يصيرّ الشئيات عبارة عن مكونات صلصالية(حركة , حلم , حب) لايمكن لنا تجاوزها لأنها الشرايين الرئيسية في حياة الكائن البشري. هنا مناجاة ومناداة الى اللامرئي العصي عى الإدراك والرؤيا , أنها لحظات تمتزج بين الخشوع وبين ماهو مطلوب تغييره حسب مايراه في يقظة أحلامه , هنا أنين الناي الذي يبقى بعد فناء الوجود , هنا السماحة والرجاء في التوغل الى قلب الأحلام التي قد تكون هي السبب في حل الكثير من الألغاز والأسئلة الغامضة التي تتحدث عن المستقبل والحياة وإملاء الفراغات الكامنة وراء الحب السرمدي الصامت.

الشاعر في سطور.....

قاسم والي صعد فوق أديم السحاب الذي سار به الى مدارات الكون الشعرية الشاسعة , فهناك من رآه ناثرا نُدفَ الغيم , وهناك من رآه على قافية رذاذ الغيم , سيّان الأمر نجد فيهما قاسم , إستند على جدار فكري أدبي متماسك , وقد قرّر أن يضع نفسه أديبا وشاعراً على وجه التحديد , هذا يعني ركبَ المأزق ودروب الألم كما يقولون . قاسم يكتب عن الفقراء بمؤازرة مؤثرة , ماضٍ في طريق الحرية الطويل الذي أنشده (نيلسن مانديلا) , لايسعى الى تطويب القديسين , لايعرف الوقوف على الحياد وخصوصا في الأزمات الأخلاقية . ولذلك حينما يحلل إسمه الحقيقي(قاسم) في بيته الشعري من نص جفاف (قاسٍ أنا عند حذف الميم , يربكني إسمي إذا غاب حرف الماء عن شجري) , أراه بيتاً حدثياً في المعنى , عموديا من ناحية التركيب والترتيب الكلماتي , أراه نصاً يحمل السيرة الذاتية للشاعر , أو عبارة عن بروفايل مختصر. قاسٍ هو عند حذف الميم من قاسم , فهنا هو لاينتمي الى الحياد , وإذا حذفنا حرف الماء فإنه يصبح قساً راهبا مرتبكا أو

متصوفاً أو معاني لا يدركها أثناء عدم ثباته وعدم إستقراره , لكنه بين هذه وتلك يبحثُ عن أبيض الأماكن لا أحلكها . المبدع قاسم قادر على البلوغ لروعة الشعر من خلال إحتكاكه بالناس , كما أن شعره شكلاً ومعنى هو من المحرضات ضد المستهجن الذي لا ينفع الغاية الأبداعية وأهدافها.

حينما نقرأ لقاسم بين الموروث والحداثة نستفهم بأن هناك علاقة ترابطية وإفصالية , علاقة تتحرك متأرجحة بين الماضي والحاضر , يتخللها جدل مشحون , وأواصر متوترة لاتستطيع الأستقرار بين ما هو خلف الظهور وأمام الصدور , لكنّ الشاعر قاسم بين هذا وذاك يبقى متمسكاً بفرديته وكيانه لكي يبني له بنيانا لا يمكن أن يسقط مهما تعالت الريح.

قاسم مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع أرث الأجداد والذين هم بدورهم لا يعتقدوه حتى وإن شاخ الأثر سيظل مجبراً على حمله فوق أكتافه متجها صوب اللانهاية , هي حالة يصعب تفسيرها , كما وأنني أعرفُ في بلدان المنافي الكثير من الشعراء المغتربين عن أوطانهم , على سبيل المثال الشعراء الهسبان وخصوصاً القادمين من الدومينيكان , يتمنون لو أنهم تخلّصوا من ثقافة الوطن التي تحملهم الى كريستوفر كولومبس بأعتباره هو المكتشف لهذه الجزيرة النائية , لكنّ الأواصر الممتدة بهم الى جذور الأعماق تبقى على أنساخ الحسم , أي أنّ دماءهم لم تقرر بعد في قضية الأنفصال التام عن إرث الأجداد . في النهاية لايسعني سوى أن أقول أنني حين أقرأ لقاسم والي أحس وكأنّ هناك صوت يصرخُ بي حذار يا من تقرأ القصيدة , من أن تقفز الأفعى عليك.

عراق/دنمارك

